إذن: لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم. وكما يقول المثل: «أذن من طين وأخرى من عجين». أو كما تقول المزحة أن واحداً مال على أذن صديق له وقال: «أريد أن أقول لك سراً» فاقترب الصديق مستشرفاً سماع السر، فقال الرجل: «أريد مائة جنيه كقرض»؛ فقال الصديق: «كأني لم أسمع هذا السر».

إذن: فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن، لكن لا بد من استشراف نفسي للتلقي. وهم لا يملكون هذا الاستشراف؛ لذلك قال الحق سبحانه: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ .. (٤٢) ﴾ أي: كأن سمعهم لا يسمع.

ومثال ذلك: أننا نجد المدرس الذي يشرح الدرس للتلاميذ، وبين التلاميذ من يستشرف السمع؛ ولذلك يفهم الدرس، أما الذي لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس.

وهم قد فاتوا الصُّمَّ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة العين، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ..(٤٢) ﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف، وأن يُقبل المرء على ما يريد أن يراه، وأحياناً لا يكون الرائي مستشرفاً؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية.

وسُئل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح [(١)] يَهْده الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يَرَ محمداً رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يتيم أبي طالب [(٢)].

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينة الإيمان وهَيبة الخشوع وجلال الورع.

ونحن قد نلقى رجلاً صالحاً في بشرته أُدْمة [(٣)] أو سواد ، وصلاحه يضيء حوله ، وله أَسْر [(٤)] من التقوى، وجاذبية الورع.

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغيَّر أمره.

وها هو «فضالة» [(٥)] يحكي عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ : ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟ قال: لا شيء ، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبي ﷺ ، ثم قال: استغفرِ الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة.

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إليَّ من وجهه، ولكني أقبلت عليه فما كان أحَبَّ

---

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيماني ؛ لأن الرائي يرى نور الإيمان يناديه ، فيلاقيه ، ويلتقي به .
أما رؤية أبي جهل فهي رؤيا انقطاع إيماني ؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع ، فلم ير نوراً ، ولم يحس به ، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذي جعله لا يرى في رسول الله ﷺ إلا يتيماً لابن أبي طالب ، وذلك بخلاف موقف فضالة الذي أحس بالنور فأحبه .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٢٣٢) أن المشركين قالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب .

(٣) الأدمة في الناس : السمرة الشديدة ، وقيل : هي من أدمة الأرض ، وهو لونها ، و[illegible] أبو البشر - عليه السلام . [اللسان : مادة(أدم)] .

(٤) الأَسْر : السَّمْت الذي يستولي على مشاعر المحيطين به .

(٥) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثي .

إليَّ في الأرض كلها من وجهه»[1].

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) ﴾ هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾

كلمة «الله» هي اسم عَلَم على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تتناهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفي كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تتناهى .

ولذلك قال النبي ﷺ :

«أسألك بكل اسم سمَّيت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خَلْقك ، أو استأثرت به في علْم الغيب عندك»[2].

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤/ ٤١٧) بلفظ : « والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خَلْق الله شيء أحب إليَّ منه » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩١ ، ٤٥٢) والحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٩) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إنْ سَلِم من الإرسال .

وإن سأل سائل: ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه فى علم الغيب ؟

أقول: حتى يجعل لنا الله سبحانه فى الآخرة مزيداً من الكمالات التى لم نكن نعرفها ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله» [1].

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم عَلَم على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التى نعلمها [2] هى اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد فى الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة «الله» هى الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها.

والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاتُفَ صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولُطْف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت: باسم القوىّ ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت: باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت: باسم الحليم ؛ فأنت تحتاج إلى الحِلْم ، وإن قلت: باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت: «بسم الله» فهى تكفيك فى كل هذا وغيره أيضاً ؛

---

(١) وذلك فى يوم القيامة فى مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها ، وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - « أن رسول الله ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول : يا رب أمتى ، أمتى » . من حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٤) .

(٢) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل فى رواية أخرى عن أبى هريرة أخرجها الترمذى فى سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذى أصح .

ولذلك يكون بدء الأعمال [1] بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غنىً وجدته ، وإن احتجت إلى بَسْط [2] وجدته.

وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا فى أن نقول : «بسم الله» . وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقرُّ بأن كل حَوْل [3] لك موهوب من الله ، والأشياء التى تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شىء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

ولو لم يذلِّل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذللها لنا حتى نتعلَّم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلْمنا ، ولا بقُدْرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذى يُذلِّل .

فأنت ترى الطفل فى الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم . أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجرى ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبة على قتله . والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتى ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يذلِّله لك .

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام - أو أمر - ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر - أو قال : أقطع » .

(٢) أى : أن يبسط فى رزقك ، فهو سبحانه الباسط . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] .

(٣) الحول : القوة ، والحيلة والقدرة على تسيير أمورك فى الحياة .

مستساغة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادى من يأكلها.

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى: يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلّفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلّفه قبل ذلك [1] ثم طرأتْ عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربِّى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدَّد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون.

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يُكلّف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المُكْرَه ؛ لأن التكليف فى مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة فى التشريع.

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرَّم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرَّم على جميع الخلق أن يسرقوا منك [2] .

---

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالغاً ؛ ولذلك كان التكليف مصاحباً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوى يروض النفس إلى مرادات الله ، ولوقام الصبى بالتكاليف فله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن: فالقيد قد جاء لصالحك.

وهَبْ أنك أطلقت يدك في الناس، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم فيما تملك؟

وحين حرَّم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك.

وحين أمرك أن تزكّى، فهو قد أخذ منك؛ ليعطى الفقير من المال الذى استخلفك الله فيه.

فلا تنظر إلى ما أخذ منك، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك القدر بالفقر، والشيء الذى تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك الثواب أضعافاً كثيرة[1].

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة، وانظرْ إلى ما حَرَّم الله تعالى عليك من أشياء، وما حَلَّل لك غير ذلك؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه.

إذن: فالتكليف لصالحك.

ثم بعد كل ذلك: أيعود شيء مما تصنع من تكاليف على الحق سبحانه؟ لا.

أيعطيه صفة غير موجودة؟

لا؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله، وليس في عملنا ما يزيده شيئاً.

---

(١) يقول الله - عز وجل - فى كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ [النساء]. وقد قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون] - ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣)﴾ [التوبة] - ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج].

إذن: فمن المصلحة أن تطبّق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير.

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح في الحقل، إنه يحرث الأرض، وينقل السماد، ويبذر، ويروي ويتعب، وبعد ذلك يستريح في انتظار الثمار.

وأنت حين تنفّذ تكاليف الحق[1] سبحانه فأنت تجد العائد، وأنت ترى في حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد، فما بالنا بحساب الآخرة.

والفلاح الذي يأخذ من مخزنه إردباً؛ ليزرعه، وهو في هذه الحالة لا ينقص مخزنه؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردباً.

وهكذا من ينفّذ التكاليف يعود عليه كل خير؛ ولذلك أقول: انظر في استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه، لا فيما تأخذه.

وهكذا ترى أنه لا ظلم؛ لأننا صنعة الله، فهل رأيتم صانعاً يفسد صنعته؟

إذن: فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً، بل يُحسّنها ويعطيها الجمال والرونق[2]؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

---

(١) تكاليف الحق سبحانه هي أوامره ونواهيه، يكلف بها الله من آمن به، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

(٢) وفي هذا يقول رب العزة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] ويقول في آية أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦٤)﴾ [غافر].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ [يونس]

أى: أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جَحْد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشىء له نهاية فهو قصير.

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية [(١)] ، وبعد ذلك خَصَّ كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وبيَّن فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن نمتنع عنه [(٢)] ، وترك لك بقية الأمور مباحة.

والمثال الذى أضربه دائماً: هو التلميذ الذى يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال: إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول: إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة.

(١) قد جعل الله فى الكون آيات خاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة]

(٢) وذلك فى نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ [الأنعام].

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعَم عباده ؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نعَم يريدها هو ، فهو الذى أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتى منه سبحانه أى ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟(١) إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فهذه الدنيا التى يتلهف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث فى الدنيا إلا ساعة ، والساعة هى الساعة الجامعة التى تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة فى الدنيا هى جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسَّم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التى تُعلَّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهى تشير إلى التوقيت.

والتوقيت ثابت - بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة فى القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون فى نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير فى بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

---

(١) لبث : مكث.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ..(٥٥) ﴾ [الروم]

وهم - إذن - يُفاجَأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرَّتْ وكأنها مجرد ساعة [١] ، وهكذا يكتشفون قصَر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم ينتفعوا بها أيضاً فهى مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

أى : أن الدنيا تمر عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها [٢] ؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ..(٤٥) ﴾ [يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين : قسم مَنْ كانوا يتعارفون على البر ، وقسم مَنْ كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على

---

(١) الساعة : أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ فيه القلة ، قال تعالى : ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : مدة قليلة ، وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] أى : لا يتأخرون لحظة ، والساعة يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : القيامة .

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾ [الإسراء] ، فالسعى للآخرة لا بد أن يكون بالنسبة إلى عظَم هذا اليوم الآخر .

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وكذلك قال فى الذين تعارفوا على الإثم:

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كان سبباً فى أن يؤول إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. (٤٥) ﴾ [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة[1] تعنى: أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله.

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجَر فيه ، وإما ألاَّ يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته فى هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث فى الصفقات.

(١) خسر: أى خسر الرجل فى تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، غبن فيها ولم يربح وأصابه النقص . وخسر الرجل: ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ..(٣١) ﴾ [الأنعام] . وخسر نفسه: أهلكها بالضلال ، وقوله تعالى: ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ..(١١) ﴾ [الحج] .

ومن الفعل اللازم قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) ﴾ [النساء] ، وقد يأتى متعدياً ، ومثله قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..(١٥) ﴾ [الزمر] [القاموس القويم] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية فى الدنيا بقوله:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف]

ويقول سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً[1] لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعت فيها.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة:

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

---

(١) تجر من باب نصر - تجراً وتجارة: باع واشترى طلباً للربح، وتطلق التجارة على المال الذى يتجر فيه التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذى يترتب عليه خير، كأن الثواب ربح، وكأن الحرمان منه خسارة، قال تعالى: ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]، التجارة هى المتجر فيه، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر] هى الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]، هى التجارة بالمعنى المجازى أى العمل الصالح. [القاموس القويم]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبِّراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثِّل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك فى ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل فى ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره.

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسِّن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان.

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه: اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هى الجامعة لكل حركات الحياة.

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شىء أن يتموَّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشترى شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها.

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعدّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويها ، وتُشَذِّب النبات ، وتَنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت فى إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع فى التجارة يأتى لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضَرْبَ المثل فى التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأتِ بالشراء.

إذن: لا بد أن نعتبر أن دخولك فى صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأسمالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدِّين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت.

وأنت فى أية صفقة قد تعوِّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة فى الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهى خسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كالدنيا ، وأنت فى الآخرة إما فى جنة ذات نعيم مقيم ، وفى هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هى الخسارة الحقيقية.

والخسران الحقيقى أن يكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضاً.

يقول الحق سبحانه:

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ . . ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس]

أى: أن الله سبحانه لم يكن فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً .. (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب كما نعلم يراه السائر فى الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبَّه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير فى صحراء شاسعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه ممن عمل له ، ولا يُحسب له ذلك فى الآخرة ، وتجد الناس يُكرّمونه ، ويقيمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

« فعلتَ ليقال ، وقد قيل » [2] .

---

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحر كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى : يجرى جرياً ، أى : يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء . [اللسان : مادة (س ر ب) بتصرف] .

والقيعة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفرّاء : القيعة جمع القاع ، والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار .. » . الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣) طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كَذّبوا بلقاء الله تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)﴾ [يونس]

أى: لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه ؛ هذا المنهج الذى يمثّل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يؤدى هذه المهمة.

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض.

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين ، أى: الخسران المحيط.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿وَإِمَّا﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغومتين ، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة.

أى: يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن نتوفينَّك قبل أن ترى هذا فى الدنيا ، ولكنك ستراه فى الآخرة حين تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر.

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ .

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ .. (٤٦) ﴾ أى: أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان في هذه الحياة ، وإن لم تره في الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم في الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم في أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذى يُرى في الناس ؛ كحسرة في النفس ، وكبْت للأسى حين يرون نصر المؤمنين.

أما الذى يُرى فهو الأمر الظاهر ، أى: الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخْذ الأموال ، وسَبْى النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به.

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : ﴿ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾ .

وكفاك الله سبحانه شهيداً : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ (١) وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾

---

(١) قسَط يقسِط - كضرب - قسطاً وقسوطاً ، وقسط يقسط قسطاً كنصر: ظلم أو عدل ، من الأضداد ، وتفهم بالقرائن ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] وأقسط : عدل وأزال الظلم ، واستعمله القرآن بمعنى العدل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ .. (٢٩) ﴾ [الأعراف] . والقسطاس : الميزان والعدل . « القاموس القويم » .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا بالرسول الذى أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [1] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وببيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال الرسل ؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شىء يحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً يتعهدها بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحِّدين منذ ذرية آدم - عليه السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا فى الأرض ، وصارت الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث فى الشرق تراه فى لحظتها وأنت فى الغرب ، فهذا يعنى توحُّد الآفات أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما فى الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات البيئة ، أمَا وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات [2] .

(١) خلا : مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] أى : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام هى جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومَنْ كفروا به هُزِمُوا .

أو أن الآية عامة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ أى : تُنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا[1] ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به مَنْ آمن ، وكفر به مَنْ كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين .

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ علىَّ » فقلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : « نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء] فقال ﷺ : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٨٠) .

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة فى الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [النساء] وقوله : ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة] أى شاهد . والشهيد من قتل فى سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود . [القاموس القويم] .

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

وما دام في الأمر قضاء، فلا بد أن المؤمن يَعتبر الكافر منازعاً له، وأن الكافر يَعتبر المؤمن منازعاً له، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

أي: يُقضى بينهم بالعدل، فالمؤمنون يتقصَّى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات؛ لأنهم كفروا بالله الحق؛ فيوردهم النار، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتي يوم يُسألون فيه عن كل شيء، فاستبعدوا ذلك وقالوا:

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً.

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً، فيقول:

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥) ﴾ [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحلَّلتم في التراب، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد؟ لا؛ إنه سبحانه القائل:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق]

أي: أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمَّع كلها، وليس هذا بعسير على الله الذى خلقهم أولاً.

وهم قد كَذَّبوا واستنكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا [1] هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يفر من هول ذلك اليوم.

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين [2] في كل زمان ومكان ، وفي العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبحوا الطبقة العليا في المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذي يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملّكتم في المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

---

(١) وقد قال رب العزة عنهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج] ، ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] .

(٢) الملحدون : جمع ملحد ، وهو الطاعن في الدين ، المائل عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت] . [المعجم الوسيط : مادة (لحد)] .

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه[1].

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجُازَى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وكان المنطق يقتضي أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولابد أن يجيء اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم في قول الله سبحانه على ألسنتهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس]

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً.

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك:

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

والرسول ﷺ يبرِّئ نفسه من كل حَوْل وطَوْل[2]، ويعلن ما أمره الحق

---

(١) يقول الحق: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [إبراهيم] ، ويقول الرسول ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

(٢) الحَوْل: الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور.

والطول: الفضل والغنى واليسر. قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النساء]. [المعجم الوسيط].

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت رداً على سؤالهم الذي أورده الحق سبحانه في الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تهكُّماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس]

وهذا يعني أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذى جاء بمنهج الله تعالى ؛ فآمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين.

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا .. (٤٩) ﴾ [يونس]

أى: أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضَراً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضَراً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجلٌ [1] ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل.

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ .. (٤٩) ﴾ [يونس]

يفيدُ أن مشيئة الله هى الفاصلة ، ويدل على أن النبى والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خُلق على هيئة القَسْر [2] فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور أخرى ، والاختيار هو فى الأمور التكليفية

---

(١) الأجل - مدة الشىء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذى أجل له الأمر : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. (٢٩) ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجَّل الشىء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) ﴾ [المرسلات] أى : حد الموت أو الهرم وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ .. (٢) ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء فى الدنيا ، والثانى : هو مدة البقاء فى القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والآجل ضد العاجل ، والآجلة ضد العاجلة . [القاموس القويم] .

(٢) القسر : القهر والإجبار .

مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

وأنت حُــرٌ فى أن تطيع أو أن تعــصى ، وكل ذلك داخل فى نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضَرّاً.

إذن: فهناك فى الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك: من ينتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتى لنفسه بالضر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه.

إذن: ففى الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم آجال الأمم ؛ لأن آجالهم - استئصالاً ، أو عذاباً - هى من عند الله سبحانه وتعالى.

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُنزَّه أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل:

﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً[1] (١١)﴾ [الإسراء]

---

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجّل فى الأمور. واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..(١١)﴾ [يونس] والعاجل: السريع ضد الآجل، والعاجلة الدنيا ، والآجلة الآخرة ، يقول الحق: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة] . أى: الدنيا، وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة ، وعجل الأمر سبقه . قال الحق سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ..(١٥٠)﴾ [الأعراف] .

إذن: فالحق سبحانه يؤخِّر مراداته رحمة بالخَلْق، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده، ولا يتقدم عن ميعاده.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)﴾ [يونس]

وقوله سبحانه: ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذى جاء بعد ﴿إِذَا[1] جَاءَ أَجَلُهُمْ .. (٤٩)﴾ [يونس]

لأن الجواب هو: ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾

وهذا ردٌّ شاف على استعجالهم للعذاب، فإن جاءكم العذاب فَلْنَرَ ماذا سيكون موقفكم؟

وهُمْ باستعجالهم العذاب يبرهنون على غبائهم فى السؤال عن وقوع العذاب.

وقول الحق سبحانه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾. أى: أخبرونى عما سوف يحدث لكم.

---

(١) إذا: تأتى لمعنيين شرطية وفجائية. إذا الشرطية: اسم شرط للزمن المستقبل، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥٤)﴾ [الأنعام]، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١)﴾ [الانشقاق] أى: إذا انشقت السماء، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة، وتختص بالجملة الإسمية، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾ [طه] «القاموس القويم».